

صعوبة اللغة العربية بين الحقيقة والادّعاء

بقلم: د. محمود شاكر سعيد

كثرت في هذه الأيام صيحات من يدّعون "صعوبة اللغة العربية" ورفع كثير منهم عقيرتهم قائلين: (١)

- العربية أصعب اللغات وأعقدها.
 - العربية صعبة، فلا بد من تسهيلها.
 - قواعد اللغة العربية معقدة، فلا بد من تبسيطها.
 - قواعد الإملاء في العربية عسيرة، فلا بد من تذليلها.
 - حروف العربي باهظة التكاليف في الطباعة، فلا بد من تغييرها.
 - اللغة العربية قاصرة عن مسايرة الحضارة، وألفاظها لا تستوعب المخترعات الحديثة، فلا بد من قبول الأعجمي.
 - اللغة العربية ليست لغة العلم، فهي لا تصلح للتعليم العالي في الجامعات ...
- وتحاول هذه الأسطر عرض هذه "الإشكالية" وهي "صعوبة اللغة العربية" والوقوف على مدى صحتها وانطباقها على العربية من عدمه.

إن الناظر في اللغة العربية يجد أنها لغة الأعاجيب في وضعها المحكم، وتنسيقها الدقيق، وأنها منظومة كبرى تضم عدداً من الأنظمة الصغرى، حيث إن لها نظامها الصوتي الثابت، ونظامها النحوي الدقيق، ونظامها الصرفي المحكم، ومن استطاع أن يستجلي غوامضها ويستقرئ دقائقها ويلم بما فيها من حكمة

(١) نحو وعي لغوي. الدكتور مازن المبارك. ص ٥٩.

وفلسفة وبيان، استيقن أن العربية قد وضعت بإلهام من المبدع الحكيم، جلت قدرته^(١) وقد ساعد على ذلك قبل الإسلام ما يأتي^(٢):

- ١- اعتزال العرب القدماء بلغتهم العربية في داخل شبه جزيرتهم، وعدم اختلاطهم بغيرهم من الأمم والشعوب؛ فسلمت من التغيير، كما أنه لم يطرأ عليها من الغزاة الأجانب من يفرض لغته عليها أو يزلحها في عرينها أو يقضي عليها.
- ٢- سعة العربية وغناها بالمفردات والحروف، وكثرة المرادفات فيها.
- ٣- عذوبتها في النطق وموسيقية ألفاظها وما أوتيت من جمال التعبير.
- ٤- ولما نزل بها القرآن ضمن لها من الوحدة والقوة والعزة ما أحيها أبدأ؛ فكان سر خلودها وسبب صمودها إلى ما شاء الله؛ حيث هيأ الله اللغة العربية المختارة لإنزال القرآن الكريم؛ فارتبطت بالإسلام ارتباطاً أبدياً يحقق لها الخلود والرفعة والازدهار على مر العصور.

ولما كان من يجهل خصائص لغة ما أو يجهل ما تتصف به تلك اللغة وما تختلف به عن غيرها من اللغات لا يستطيع أن يقدم الحل الصحيح لأي مشكلة من مشكلاتها؛ فإن معرفة طبيعة اللغة وفقه خصائصها أمر لا بد منه لكل من يتحدث عن اللغة دفاعاً عنها أو علاجاً لها؛ لذا فإننا نجد أن من المفيد أن نذكر خصائص اللغة العربية ومنها ما يأتي^(٣):

-
- (١) دقائق العربية. الأمير أمين آل ناصر. ص ١٣ وما بعدها.
 - (٢) مجلة الأزهر. عدد ربيع الأول ١٤٠٨هـ/ نوفمبر ١٩٨٧م ص ٣٤٦ (اللغة العربية: أصلها ونشأتها. الدكتور محمد عبدالمنعم عبدالكريم).
 - (٣) انظر: أ- دقائق العربية. الأمير أمين آل ناصر ص ١٣ وما بعدها.
ب- نحو وعي لغوي. د. مازن المبارك ص ٥٧.
ج- دراسات في فقه اللغة. د. السيد يعقوب بكر. ص ٤ وما بعدها.
د- الاتجاهات الحديثة في طرائق تدريس اللغة العربية. د. محمود شاكر سعيد ص ١٥.

- السعة: التي لا حد لها حتى كادت مفرداتها لا تحصى؛ حيث إن وجود المترادفات في العربية يعمل على تحقيق السعة التي تتميز بها العربية وليس كما يرى بعضهم من أن كثرة المترادفات تزيد في تعقيد اللغة وصعوبتها.
- الإعراب: الذي لولاه ما مُيز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منوعت، ولا تعجب من استفهام، ولا نعت من تأكيد^(١).
- إقامة المصدر مقام فعل الأمر: "صبراً آل ياسر" أي اصبروا.
- إن الحرف العربي لا يقرأ إلا على صوتية واحدة، بخلاف الحرف الإنجليزي مثلاً؛ فالحرف "c" الإنجليزي ينطق "س" مرة و"ك" مرة أخرى كما في circus أو cut. والصوت الواحد لا يعبر عنه بالعربية إلا بحرف واحد بخلاف اللغات الأوروبية.
- عدد الحروف محدد في العربية، غير محدد في غيرها، فإلى جانب الحروف المعروفة الإنجليزية (مثلاً) نجد أن أصواتاً لا يعبر عنها إلا باجتماع عدد من الحروف مثل: tio, tie, sh, ch, th ... ولا تحتاج العربية إلى مثل ذلك.
- اسم الفاعل في العربية محدود الصيغ، بينما في غيرها غير محدد. وكذلك اسم المفعول، وجمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم.
- إن اللغة العربية لغة اشتقاقية، وهذا مما يكسبها مرونة ومناعة في وقت واحد؛ فسمح لها بتوليد الألفاظ الجديدة، وحافظ على ثروتها وحماها من الزيغ والشطط.
- إن العربية لا تحتاج الجمل الخبرية فيها إلى إثبات ما يسمى في اللغات الأوروبية "فعل الكينونة" فنحن في العربية نقول هذا باب، دون الحاجة إلى قولنا: هذا يكون باباً، كما في الإنجليزية This is a door.

(١) الصاحبي، لابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر. ٧٦.

- الإيجاز الذي يعتبر من أبرز خصائص اللغة العربية، وهو يشتمل في لغتنا الحروف والألفاظ والتراكيب منطوقة ومكتوبة: فالكلمات: أب وأم وأخ في العربية تتكون كل منها من حرفين؛ أما في الإنجليزية (مثلاً) فكل منها تتكون من ستة أو سبعة أحرف؛ Father, Mother, Brother.

ونختصر في العربية بعض الأفعال فإذا هي حروف كما في فعل الأمر "ق" من وقى يقي، و"ع" من وعى يعي، و"ف" من وفى يفي ...

وفي العربية ألفاظ يصعب أن يعبر عن معانيها في لغة أخرى بمثل عددها من الألفاظ أو الحروف، كأسماء الأفعال وكاف التشبيه وحروف الاستقبال:

هيهات في العربية يقابلها في الإنجليزية: It is too far.

هو قوي كالأسد يقابلها: He is as strong a lion.

سأذهب، يقابلها: I shall go.

سيذهب، يقابلها: He will go.

لن أقابله، يقابلها: I will never meet him,

ونقول في العربية: بِمَ؟ في مقابل: What with?

ونقول في العربية: لم؟ في مقابل: Why أو What for.

ونقول في العربية: عم؟ في مقابل: What about?

ونقول في العربية: إلام؟ في مقابل: When until?

ونقول في العربية: مم؟ في مقابل: What of?

ومن الإيجاز في اللغة العربية أننا "إذا ترجمنا إلى العربية كلاماً مكتوباً بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية أقل من الأصل بنحو الخمس أو أكثر"^(١).

- إن اللغة العربية بطيئة التطور، فدرجة الاختلاف مثلاً بين عربية القرن الثامن وعربية القرن العشرين أقل قلة واضحة منها بين إنجليزية هذين القرنين. وقد ساعد ذلك على الإبقاء على اللغة دون تغيير تقريباً، وأضعف تأثير الزمن، فأمكن للأدب العربي والقرآن الكريم أن يقرأ اليوم في سهولة ويسر، وقلل أيضاً من آثار البيئات المختلفة فأمكن للعرب في مختلف أنحاء العالم العربي أن يتحدث بعضهم إلى بعض دون صعوبة ظاهرة.

وإلى جانب هذه الخصائص والمميزات التي ذكرنا فإن هناك بعض الصعوبات التي تواجه تعلم اللغة العربية، وتعود إلى طبيعة اللغة وهي:

١- الشكل: وهو وضع الحركات القصار على الحروف: كالفتحة، والضمة، والكسرة، إلى جانب السكون، فإذا وجد المتعلم أمامه لفظ "علم" حار فيما إذا كان: عَلِمَ أو عَلِمَ، أو عَلِمَ، أو عَلِمَ أو عَلِمَ....

ومن الطبيعي أن ينشأ عن ذلك: "أننا لا نجد حتى من بين من تفوقوا في اللغة العربية من لا يخطئ في ضبط الكلمات"^(٢) عند قراءتها إذا لم تكن مضبوطة ضبطاً كاملاً.

وكثيراً ما يتوقف المعنى على الضبط السليم؛ ففي الآية الكريمة: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"^(٣) المعنى متوقف على نصب لفظ الجلالة ورفع كلمة

(١) العربية لغة عالمية. د. يعقوب بكر. القاهرة ١٩٦٦م.

(٢) مجلة التربية الحديثة. ع ٣ س ١٩٨٣م ص ٨ "رسم الكلمات العربية" بهي الدين بركات.

(٣) الآية ٢٨ من سورة فاطر. وهناك من يرى قراءة الآية برفع لفظ الجلالة على أن "يخشى" بمعنى "يُجَلُّ ويُقدَّر".

العلماء، والخطأ في ضبط هذه الآية يفسد المعنى ويؤدي إلى الكفر والبلاء. ولكن "الشكل" أيضا يختصر عدد حروف الكلمة، فكلمة "كَتَبَ" العربية تتكون من ثلاثة حروف، ولو رسمناها بالرسم اللاتيني لصارت "kataba" وحروفها ستة.

٢- الإعجام: وهو نقط الحروف. والمعروف أن نصف الحروف العربية معجم (منقوط) ونصفها الآخر (غير منقوط). وإن عدد النقط يختلف باختلاف الحروف، فهي إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث، وكذلك فإن وضع النقط يختلف باختلاف الحروف، فمنها ما يوضع تحت الحرف، ومنها ما يوضع فوقه أو في وسطه.

وما من شك في أن "الإعجام" يختصر أشكال الحرف العربي، ولكنه يوقع المبتدئ في اللبس.

٣- اختلاف شكل الحرف باختلاف موضعه في الكلمة؛ حيث يأخذ الحرف فيها أربعة أوضاع مختلفة:

أ- وضع الحرف غير متصل.

ب- وضع الحرف وهو متصل بما قبله.

ج- وضع الحرف وهو متصل بما بعده.

د- وضع الحرف في الوسط.

وغني عن البيان "أن تغير أشكال الحروف بتغير مواضعها في الكلمة يستلزم إجهاد ذهن المتعلم خلال تعلم الكتابة" أو القراءة^(١).

(١) مجلة التربية الحديثة. ع ٣ س ١٩٣٨ ص ١٣٠ "حول رسم الكلمات العربية" ساطع الحصري.

٤- اختلاف هجاء المصحف الشريف عن الهجاء العادي (الاصطلاحي). فمن الملاحظ أن الرسم العثماني الذي نكتب به المصاحف يختلف عن الرسم الاصطلاحي في عدة مواضيع هي: الحذف والزيادة، ومد التاء وقبضها، والفصل والوصل في بعض الكلمات. وهذا مما يتسبب في إرباك المتعلمين أحياناً.

ويرى كثير من العلماء أن "رسم القرآن" توقيفي لا تجوز مخالفته، وأن كتابة المصحف بالرسم الحديث تؤدي إلى ضياع الرسم العثماني؛ وبذلك تضيع ميزة القرآن الكريم عن غيره من الكتب السماوية السابقة.

هذا إلى جانب أن قواعد "الرسم الاصطلاحي" غير ثابتة من حيث الزيادة والنقصان، كما أن قواعده غير موحدة في جميع الأقطار الناطقة بالعربية^(١).

لذا نرى أن يبقى المصحف كما هو درءاً لمثل تلك الاحتمالات^(٢).

٥- القواعد الإملائية: وتتمثل في زيادة بعض الحروف في الكلمات أو حذفها، وكتابة التاء مربوطة مرة ومبسوطة مرة أخرى، واختلاف كتابة الهمزة باختلاف حركتها أو حركة الحرف الذي قبلها، وارتباط قواعد الإملاء بالنحو والصرف، إلى الوصل والفصل، وكتابة الألف المتطرفة.....

ولكن مما تجدر الإشارة إليه أن القواعد الإملائية في جميع اللغات فيها الكثير من الصعوبات، هذا إلى جانب أن الكتابة لا تتطابق دائماً مع النطق لأنها "اصطلاح عرفي عام لتسجيل النطق بطريقة جامدة؛ لا تخضع للتغيير والتطور، إذ تبقى الصورة العرفية التي بدأت بها أولاً واقفة عند نقطة البدء بينما يخضع النطق باللغة للتنوع والتغيير في الأصوات والصيغ والتراكيب

(١) فكلمة "هيئة" يكتبها أهل العراق هكذا "هياة" على اعتبار أنها وقعت مفتوحة بعد ساكن،

بينما تكتب في بلاد الشام ومصر "هيئة" لأنها وقعت مفتوحة بعد ساكن غير صحيح.

(٢) انظر: "كيف تتأدب مع المصحف، كتابة، قراءة، تعلماً، استماعاً" محمد رجب فرجاني.

والأسلوب بما لا يد لأحد على إيقافه ودفعه، وذلك تبعاً لصلته القوية بحيوية الناطقين وعاداتهم النطقية التي تتغير من فرد لآخر ومن عصر لآخر؛ بما لا تستطيع الكتابة أن تلاحقه: فالكتابة ترتبط بالعادة، بينما يخضع النطق لعرف الاستعمال؛ والعادة في اللغة محافظة، والاستعمال في اللغة منطور، والكتابة أداة لتسجيل اللغة في حين أن النطق نشاط حي لمن يستعملون اللغة^(١).

وإن هذه الصعوبات التي ذكرناها ليست صعوبات مستعصية؛ بل هي صعوبات مرحلية يمكن للمتعلم أن يتغلب عليها؛ لأن التجارب التربوية، والطرائق الحديثة في التعليم كفيلة بتذليل تلك الصعوبات وتيسير تعليم اللغة للأجيال القادمة؛ حيث إن هذه الصعوبات طارئة تزول محاذيرها بالتعلم والتلقين.

ولعل من أسباب شكوى المتعلمين من عدم تمكن اللغة من إسعافهم في شتى المجالات ما يلي:

- أ- إن تعلم العربية في مدارسنا ناقص، بحيث إن طلابنا لا يفيدون كثيراً من الساعات الطويلة التي يقضونها في تعلم اللغة العربية الفائدة المرجوة التي تساعد في استعمالها استعمالاً صحيحاً.
- ب- ندرة الكتب العلمية التي تنقل للقراء المعرفة العلمية مبسطة بحيث يألفون القراءة العلمية تدريجياً.
- ج- انعدام المعاجم الدقيقة في الأمور العلمية التي تيسر للناس نقل الأفكار والمعلومات إلى اللغة العربية.
- د- افتقارنا إلى المعاجم العربية التي تيسر للقراء استعمال الألفاظ العربية نفسها بحيث يكون المعنى دقيقاً.

(١) في اللغة ودراساتها. محمد عيد، ص ١٣٠.

هـ - عدم القدرة على استعمال المعاجم وكتب المعلومات العامة بما يمكن من الإفادة من معلوماتها.

ولمساعدة الطلاب في فهم اللغة وإتقانها ننصح بما يلي:

١- إذا كان هناك مفتاح سري لفهم اللغة وإتقانها فهو نبذ الاعتقاد بصعوبتها وتعقيدها، ونبذ القلق عند دراستها؛ لأن اللغة العربية مادة شائقة ومسلية، ولا بد من تنمية حب المغامرة في نفس الطالب لاكتشاف أسرار اللغة العربية وتراكيبها وقوتها. ويتم ذلك بالدربة والمران وتعويد الطلاب البحث والاستقصاء منذ نعومة أظفارهم. مع ملاحظة أن تعلم اللغة لا يأتي من دراسة قواعدها فحسب؛ وإنما يأتي أيضاً من ممارسة القراءة، واستمرار الاطلاع على الكتب التي تشتمل على الأساليب الراقية واللغة الفصيحة.

٢- الحرص على التحدث بلغة عربية فصيحة داخل المدرسة سواء من قبل المعلمين أم الطلاب.

٣- من المؤكد أن ضعف الطلاب في اللغة العربية في المراحل الثانوية والجامعية ناتج عن ضعف خلفية الطلاب اللغوية في المراحل التعليمية الأولى؛ لذا ننصح بإعادة النظر في مناهجنا وطرائق تدريسنا في المراحل الأولية، وألا نكون كمن يركب جملاً ويقول لا يراني أحد.

٤- إن اللغة كغيرها من العلوم تنمو معرفتها ومهارتها خطوة خطوة مع الوقت، وهذا يقتضي أن يكون الطالب (في جميع مراحل حياته التعليمية) دائم الصلة بها حريصاً على تعلمها وفهمها.

٥- إيجاد الجهاز الفني الصالح للتدريس: حيث إن المعلم هو المفتاح الرئيس في العملية التعليمية، وإنه هو مطلق الطاقات الإنسانية لدى طلابه ومفجرها إذا كان معلماً ناجحاً، وساحقها وخانقها إذا كان غير ذلك - لا قدر الله- إلا أن

المعلم وحده لا يكفي؛ حيث لا بد من مساندة مدير المدرسة والموجه والإدارة التعليمية الواعية؛ لأن يداً واحدة لا تصفق.

٦- لا بد من ضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية ضبطاً كاملاً في جميع مراحل التعليم، مع التأكيد على ضرورة ضبط جميع كلمات المقررات المدرسية في المرحلة الابتدائية على الأقل.

٧- إن المجتمع - أي مجتمع - مطالب بأن يتصدى لأية مشكلة يواجهها اجتماعية كانت أو تعليمية أو اقتصادية وأن يقدم لها الحلول العلمية المناسبة. ويتطلب هذا الهدف تشجيع الباحثين وإعدادهم للاضطلاع بالدراسات والبحوث وبذل الجهد لتذليل تلك المشكلات، والعمل على وضع الحلول المناسبة لها. وهذا يشمل هذه الإشكالية التي نحن بصددنا وغيرها من المشكلات.

٨- أن تحرص جميع وسائل الإعلام (المرئية والمسموعة والمقروءة) على أن تكون قذوة صالحة في صحة نطق الألفاظ وكتابتها، وأن تجند بعض برامجها لمعالجة قضايا اللغة ومعالجة مشكلاتها. وإن دورها يجب ألا يغفل في قدرتها على ذبوع بعض الألفاظ والتراكيب وانتشارها.

ونتيجة لاقتناع كثير من أبناء العربية بصعوبتها وتعقيدها فقد وجهت إليها التهم التالية:

- أن العربية ليست لغة علم ولا تصلح للتعليم العالي في الجامعات.
- أن العربية قاصرة عن مسايرة الحضارة وأن ألفاظها لا تستوعب المخترعات الحديثة، إلى جانب صعوبة الدراسات النحوية والصرفية فيها.

ولكن من الملاحظ أن كثيراً من فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية في جامعاتنا تستعمل اللغة العربية للتدريس ببسر وسهولة؛ مما يدل على أن شكوى الفئة التي

تختص بهذه الفروع لا أصل لها البتة. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن ذلك يثبت أن القضية ليست قضية فشل اللغة العربية وصعوبتها بقدر ما هي قضية جهل بعض الكتاب بالأدوات اللازمة للكتابة فيها^(١).

أما في المجالات العلمية والتطبيقية والتكنولوجية فإننا نجد أن مجامعنا اللغوية قد قصرت في القيام بواجبها فسبقتها علوم الطب والهندسة وما إلى ذلك، ولم تستطع تلك المجامع اللحاق بالعلوم البحتة، مع أن الناس العاديين ينقلون الكلمات يومياً إلى العربية بصيغتها الأصلية بعد تهذيبها بما يناسب اللسان العربي فيما يشتد الجدل بين أهل اللغة المتمزتين حول كلمة قد تدل على المعنى أو لا تدل^(٢).

وإن صنيع هؤلاء اللغويين يضيع الوقت ويزيد الشكوى من عجز اللغة العربية عن التعبير عن حاجات العصر، ولا يخدم اللغة في شيء؛ ولو أنصف هؤلاء لصنعوا ما صنعه أجدادنا الأفاضل الذين لم يتورعوا في بعض العلوم عن استعمال كلمات "الإسطرلاب" و"الإسطس" مع ملاحظة أن لغتنا لا تتسع بالنحت والاشتقاق والقياس فقط؛ بل لا بد لها من التعريب في بعض الألفاظ التي لا سبيل إلى ترجمتها ترجمة دقيقة.

وأما اللغة ففيها الطاقة اللازمة للتفجر والتفجير كي تتسع لتعبر عن حاجات العصر؛ وإذا نظرنا إلى بعض الشعوب التي كانت لغاتها إلى عهد قريب تكاد تكون ميتة فإننا نجدها اليوم تتسع لكل شيء، وليست تلك اللغات بأغنى ولا أقوى ولا أيسر من لغتنا العربية، ولكن الذين اهتموا بها كانوا أوسع تفكيراً وأعمق اهتماماً بلغاتهم، وأكثر انتماء لأممهم، وأكثر وفاء لأمجادهم؛ لأن اللغة بأهلها إذا نشط أهلها نشطت وأسعفتهم في كل مجال، وإذا هانت عليهم نفوسهم هانت عليهم لغتهم؛ ففي كل مرة

(١)، (٢) مجلة القافلة. ذو الحجة ١٤٠٨هـ/ يوليو/ أغسطس ١٩٨٨م "اللغة العربية في عصر

التحدي" الدكتور نقولا زيادة.

تصدى العرب لكل تحد واجههم كانت العربية تستجيب لهذا التحدي، وتخرج كنوزها لأن أهلها احتاجوا لتلك الكنوز، وكأنها تتمثل قول حافظ:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

ويجب ألا نغفل قدرة في لغتنا العربية أدركها الأقدمون الذين كان رائدهم "ابن جني" عندما وضع باباً سماه "باب في شجاعة العربية"^(١) ضمنه جملة من الفصول نتوقف عند فصل منها وهو "فصل الحمل على المعنى" الذي يعتبر مظهراً من مظاهر مرونة اللغة ووجهاً من وجوه تمكناها وقوتها وراثتها؛ ويتجلى ذلك في حرية المتكلم والمنشئ إذا اقتضته دواعي الصياغة الأسلوبية في تأنيث المذكر وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة والجماعة في الواحد، واتصال الحرف بحرف ليس مما يتعدى به؛ لأنه في معنى فعل يتعدى به ... ونحو ذلك مما ينتظم في باب إثراء الطاقة التعبيرية وتوسيع الرخصة اللغوية لا فيما يقتصر على الضرورة الشعرية فحسب، بل فيما يتجلى عند الناثرين أيضاً^(٢).

ومن الأمثلة على تلك الشجاعة في لغتنا في مجال "الحمل على المعنى" كما أوضح "ابن جني" ما يلي^(٣):

- قال تعالى: "إن رحمة الله قريب من المحسنين"^(٤) ذهب بالرحمة هنا إلى المطر أو الرزق فذكر الخبر "قريب" ولم يؤنثه كما يقتضي حكم اللفظ في المخبر عنه.

(١) الخصائص، لابن جني ج ٢ ص ٣٦٠-٤٤١.

(٢) مجلة القافلة. ربيع الأول ١٤٠٩هـ/ أكتوبر/ نوفمبر ١٩٨٨م "شجاعة العربية ونظرية الحمل على المعنى" د. صاحب أبو جناح.

(٣) الخصائص، لابن جني ج ٢ ص ٤١١ وما بعدها.

(٤) الأعراف ٥٦.

- لعل حكم الإيقاع ومقتضيات الموسيقى اللفظية (ما كان يسمى عند القدماء تناسب الألفاظ) جعل التضحية بالمظهر التشكيلي المباشر أمراً ميسوراً، لا سيما أن العربية قد تعمد أحياناً إلى الموازنة بين التأنيث والتذكير مما سماه ابن يعيش الاعتدال بين المؤنث والمذكر^(١)، وإلى هذا المنحى اتجه عروة بن حزام العذري في قوله^(٢):

ليالي لا عفراء منك بعيدة فتسلى ولا عفراء منك قريب

فأخبر بالمذكر "قريب" عن المؤنث؛ لأن روح العربية التي تنظر إلى المعنى حين تضيق بها قيود اللفظ، وتقدمه في المرتبة نظراً لأن الألفاظ إنما وجدت أصلاً لخدمة المعاني كما يقرر ابن جني^(٣).

أما تأنيث المذكر فمنه قول القائل^(٤):

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت؟
وأراد بالصوت "الاستغاثة" فأنثه.

- ومما اتصل فيه الفعل بحرف ليس مما يتعدى به قوله تعالى: "ولأصلبكم في جذوع النخل"^(٥) أي عليها. وقوله تعالى: "فقل هل لك إلى أن تزكى"^(٦) والكثير في هذا قولنا: هل لك في كذا؟ وإنما استخدم القرآن "إلى" لأنه بمعنى أدعوك وأرشدك إلى أن تزكى. ومنه قول الشاعر:

(١) الاعتدال ٦: ١٩.

(٢) الخصائص ٢: ٤١٢ وانظر السمط ٤٠١ واللسان (قرب).

(٣) الخصائص ١: ٢١٥.

(٤) هو رويشد بن كثير الطائي. انظر الخصائص ٢: ٤١٦ والحماسة ١: ١٦٤.

(٥) طه ٧١. انظر "تناوب حروف الجر في لغة القرآن" الدكتور محمد حسن عواد.

(٦) النزاعات ١٨.

إذا رضيت علي بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها

وهذا يؤكد لنا أن العربي كان يتعامل مع لغته على مقتضى ما تحتمله شرط الإفهام والتفهم، فهي ليست قوالب ضيقة، بل إمكانيات تعبيرية واسعة تمنحه حرية في التصرف الأسلوبي وتنظيم العبارات وما سماه "ابن جني" "شجاعة العربية" ليس غير مرونة العربية وطواعيتها وحيويتها وقدرة منطقتها على الاستجابة والتكيف لظروف القول ودواعي التعبير شعراً كان أو نثراً، علماً كان ذلك أو أدباً^(١).

وأما عن استصعاب الدراسة النحوية والصرفية الذي يبعث على النفور من اللغة واتهامها بالصعوبة والتعقيد؛ فيجب أن نفرق بين نحو اللغة، باعتباره جزءاً من طبيعة اللغة وجوهرها، وبين أساليب دراسة هذا النحو أو الصرف ومناهج تعليمه^(٢).

ونحن نؤيد ما ذهب إليه الدكتور عبدالكريم خليفة حين أكد "أن في طليعة أسباب هذا النفور من النحو والصرف، يأتي الجمود في اتباع قدماء النحويين في سرد القواعد من غير عرضها على كلام العرب وشعرهم الخالي من الضرورة، والتزام أقوالهم كأنها مما يحرم الاجتهاد فيه أو مناقشته^(٣) مع أن المناقشة التي بدأت شريفة بين علماء النحو داخلها شيء من الغثاثة وشيء من مخلفات التعلق بمغريات الحياة على حساب النحو وحقائقه، فانعطف مسار النحو في بعض محطاته وانحنى انحناءات هنا وهناك جعلته يسير في اتجاه غير سليم تماماً، وسجلت على دربه نتوءات بارزة وسلبيات كثيرة.

ومما يؤسف له أن مؤلفي النحو من المعاصرين لم يستطيعوا أن يأتوا بشيء ذي بال في تسهيل هذا العلم الذي هو ميزان تأليف الكلام. ولله در القائل:

(١) انظر "شجاعة العربية ونظرية الحمل" مرجع سابق.

(٢) اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث. د. عبدالكريم خليفة ص ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، وانظر: "النحو العربي: ادعاء صعوبته - طريق معرفته" د. محمود فجال.

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ومن هنا نخلص إلى أن ادعاء من يتهم لغتنا العربية بالصعوبة والتعقيد ادعاء باطل، كان الأولى به أن يوجه إلى أبناء الأمة الذين وقفوا بلغتهم ولم يعملوا على تطويرها وتطويرها؛ لأن اللغة بأهلها إذا نشط أهلها نشطت وأسعفتهم في كل مجال، وإذا هان أهلها وتكاسلوا خبت جذوتها بانتظار من يقوم بتحمل مسؤوليتها؛ فاللغات تتطور وتزول، والعربية باقية بحفظ الله "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

وبعد:

فأرجو أن أكون بهذه الأسطر قد أضفت ورقة مقروءة إلى ملف اللغة العربية الذي سيبقى حياً متداولاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الدكتور محمود شاكر سعيد

رئيس قسم اللغة العربية

كلية المعلمين بأبها

السعودية

المراجع

- القرآن الكريم
- بركات، بهي الدين، رسم الكلمات العربية، مجلة التربية الحديثة، ع ٣ س ١٩٨٣م.
- بكر، السيد يعقوب، دراسات في فقه اللغة، العربية لغة عالمية، القاهرة ١٩٦٦م.
- أبو جناح، د. صاحب، شجاعة العربية ونظرية الحمل على المعنى، مجلة القافلة، ربيع الأول ١٤٠٩هـ/ أكتوبر/ نوفمبر ١٩٨٨م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص (تحقيق محمد علي النجار)، دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت.
- الحصري، ساطع، حول رسم الكلمات العربية، مجلة التربية الحديثة، ع ٣ س ١٩٣٨م.
- خليفة، د. عبدالكريم خليفة، اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، من منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- زيادة، د. نقولا، اللغة العربية في عصر التحدي، مجلة القافلة، ذو الحجة ١٤٠٨هـ/ يوليو/ أغسطس ١٩٨٨م.
- سعيد، د. محمود شاكر، الاتجاهات الحديثة في طرائق تدريس اللغة العربية، دار أسامة للنشر، الرياض ١٩٩٢م.
- الشريف، محمد عادل عبدالسلام، كتاب في الفرق بين رسم المصحف الشريف وبين رسم القواعد الإملائية، دار الفقه والحديث، عمان - الأردن ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- عبدالباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط دار الشعب، القاهرة.
- عبدالكريم، د. محمد عبدالمنعم، اللغة العربية: أصلها ونشأتها، مجلة الأزهر، ع ربيع الأول ١٤٠٨هـ/ نوفمبر ١٩٨٧م.
- عواد، د. محمد حسن، تناوب الحروف في لغة القرآن، دار الفرقان ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- عيد، محمد، في اللغة ودراستها.
- ابن فارس، اللغوي، الصاحب في فقه اللغة (تحقيق السيد أحمد صقر).
- فجال، د. محمود، النحو العربي: ادعاء صعوبته طريق معرفته، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فرع الجنوب.
- فرجاني، محمد رجب، كيف تتأدب مع المصحف: كتابة وقراءة وتعلماً واستماعاً، دار الاعتصام - القاهرة.
- آل ناصر الدين، الأمير أمين، دقائق العربية، مكتبة لبنان، ط ٢ عام ١٩٦٨م.
- المبارك، د. مازن، نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة- بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- محمود، د. محمود حسني، التنافس وأثره على النحو والنحاة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج ٩-٧.